يكسر وجهها المتعب !..

قصة بقلم زكريا تامر

... ولقد اطممت لحمي وذكرياتي واحلامي الهرمة لغربان سوداء ، حومت فوقي في نهار شمسه باردة هزيلة ، وساعاته كلها مدفونة تحت الرماد المنهمر من جرح رجل بائس مصلوب وسط صخب مدينة كبيرة . وتعاقبت علي الاعوام الكثيرة وانا راقد على ظهري بدون فرح او كآبة .. احملق ببلاهة في عتمة موحشة . وتسرب الي في احدى الليالي ضياء القمر من ثغرة في سقف قبري ، فامتلكتني قشعريرة قاسية ، وتذكرت دفعة واحدة نهدي امراة بلون الحليب واغنية قديمة ونهرا تنساب مياهه الخضراء بهدوء ونعومة ، واستفاق في نفسي حنين جارف الى مدينتي التي ابعدني عنها موت فظ .. فقلت لنفسي : ماذا ساخسر لو عدت الى العالم ؟

وهكذا قدر لي ان ارجع مرة اخرى الى الشوارع حاملا في اعماقي نشوة معلقة بالقمر المتلالىء فوقي بعذوبة تمتزج بدمائي المتدفقة في عروقي .. فاحس باني قديس صغير وديع .. ليعش البشر ببراءة تنقذ مدينتي من تعاسة متوحشة .. القمر .. آه ما اجمله .. وتشبثت نظراتي بوجهه المستدير الابيض .. وقلت لنفسي : القمر امراة جميلة بيضاء .. ساسرقها في يوم ما .

واخذت اقهقهه مستسلما لغبطة مجنونة غير عابىء بنظرات الاستنكار والاستغراب التي ترمقني بها اعين المخلوقات المتحركة فيما حولي..وقال شاب لامع الشعر لشاب اخر كان يمشي بجانبه :

ـ انظر .. هذا مخلوق تافه .. لماذا يضحك ؟ .. لا بد انه سكران .

وتلاشت قهقهاتي رويدا رويدا بينما تعاظم في داخلي الشوق لرؤية امي واخوتي ، فحثثت خطواتي نحو الزقاق الذي يقبع فيه البيت الذي كنت اعيش في جنباته من قبل ، وعندما وقفت امامه .. لمست خشب بابه بحنان قبل ان تضغط اصبعي على زر الجرس ضغطتين قصيرتين ..وقلت لنفسي :

ـ ستعرفني امي حالا في طريقتي في قرع الجرس .. وستفاجأ برؤية ولدها الذي مات قبل اعوام .. يا لفرحتها !

واضطربت قليلا حينما سمعت حركة خلف الباب الذي سرعان ما انفرج عن وجه امي ، فهتفت اعماقي بحرارة وقد خضعت لطفولة عجيبة :

ـ اه يا امي .. اه يا امي ..

وذهلت حينما سمعت امي تقول متسائلة بصوت جامد :

ـ ماذا تريد ؟

فضحكت ضحكة مصطنعة ، وقلت بصوت حاولت جهدي ان اجعله مرحا :

ـ يا له من سؤال ؟ اهكذا تستقبلين ولدك ؟

فاجابت ببرود : انت مخطىء .. اني لا اعرفك .

فصحت بحماس : انا ولدك .. ولدك الميت .. الا تذكرين.. كم بكيت يوم موتي ؟

فقالت بنفس الصوت الجامد :

ـ اولادي جميعهم احياء .. انت مخطىء .. اني لا اعرفك .

وادارت وجهها الى الداخل ، ونادت اخوتي الذين اتوا بسرعة ، واقفلوا الباب في وجهي صارخين :

ـ اذهب عنا يا مجنون .. نحن لا نعرفك .

فاستندت الى الجدار وانا اشعر باعياء غريب .. آه يا امي .. لاجلك جئت من عالم الموتى .. انا وحيد بدونك .. انا وحيد .

وجرتني قدماي بعد قليل نحو شارع متخم بالضوضاء .. وهناك احسست باني قد غدوت شيئا ما كريها لا طفولة له .. ولم البث ان توقفت عن المسير عند احد المطاعم ، وطفقت اتامل من خلال واجهته الزجاجية النساء والرجال الجالسين وراء مناضد تكدست عليها صحون مليئة بطعام شهي . وانبثق بغتة جوعي المختبىء في اغواري منذ سنين.. آه يا امي .. انا جائع .. وظللت غارقا في حملقة نهمة انتشلتني منها بعد مدة طويلة يد امسكت بكتفي .. فاستدرت مذعورا لاواجه رجلا انيقا .. قال لي وهو يبتسم :

ـ انت جائع ؟

ـ انا بلا نقود

ـ اتبعني .

وسرت خلفه برأس منكس مسافةغير قصيرة ، وعندما وصلنا الى بناية فخمة ، قال وهو يجتاز دون ان يلفت الي :

ـ اتبعني .

وفي غرفة اثاثها ثمين وفاخر للغاية .. ابتسم الرجل الانيق مرة ثانية ، وقال :

ـ اذن انت جائع وبلا نقود ؟ .. يمكنني في مثل هذه الحالة ان اعتبر نفسي منقذك فلولاي لسرقت وقتلت .. اتحب القتل ؟

قلت : انا احب كل التجارب الجديدة .

قال : ستعيش سعيدا ان اطعتني وخدمتني باخلاص .

قلت بذل : سافعل كل ما تريد .

فابتهج وجهه وقال :

ـ اني احب لو يتكلم كل الناس مثلك .

ثم اردف بعد لحظة صمت وبلهجة جدية :

ـ توجد في احدى غرف هذا المنزل امراة تضايقني .. اقتلها ..

واقترب مني ، ودس في جيبي سكينا نصلها براق ، ثم دفعني نحو باب موصد .. فتحته بتردد .. واستدارت الي امراة كانت تقف امام مرآة كبيرة ، وراحت تتاملني دونما كلمة .

قلت : الست خائفة ؟

قالت : ستقتلني .. اعرف عملك .

قلت : الست خائفة ؟

قالت : الموت لا يخيفني .. انه بدء طريق الى عالم كبير جدا ومجهول .

قلت : الن تصرخي ؟

قالت بازدراء : انت جبان .

وثبتت علي عينيها اللتين تقذف اغوارهما بصرخة عنيدة تتحداني .. تذكرني برجل سكران تشاجرت معه في خمارة ، فبصق في وجهي باحتقار، وقال بصوت مرتفع :

ـ انت فار .. اذهب واقتل المرأة التي يعرفها كل الذكور في المدينة ثم حاول بعد ذلك ان تضرب رجلا مثلي .

ربما شحب وجهي في تلك اللحظة .. لم اتفوه بكلمة .. خرجت من الخمارة تتبعني عاصفة من قهقهات السكارى الساخرة .. عدت الى البيت .. اخي الصغير يبكي .. لماذا يبكي .. انه ما زال صغيرا .. ضربته بقسوة جعلته يصرخ صراخا شبيها بعواء كلب يلتهمه حريق كبير ... صرخت امي : لا تضربه ... فقلت بصوت متهدج : ساقتله واقتلك .. غير ان غضبي انطفأ لحظة سمعت نشجيها المرير .. وتمنيت بعد لحظات لو اعانق اخي وامي وابكي معهما طويلا .

وضحكت المرأة وقالت : انت جبان .

فحدقت بحقد في وجهها .. وتذكرت مرة ثانية الرجل السكران وامي.

فاجتاحني غضب هائل جعلني احس بان يدي قد انفصلتا عن جسدي وتحولت كل يد الى مخلوق غامض شرير .. له عالمه الخاص وله حبه وحماقته ونشوته وجريمته .

وتقلصت اصابعي وهي تضغط على عنق المرأة الابيض بينما تهدر في مسمعي اغنية الكراهية ذات النغم الشرس .

وتراجعت بعد هنيهة الى الخلف ، وتدلت يداي الى جانبي كجثتي صرصارين ضخمين .. تاركتين جسد المرأة ينهار الى الارض بدون حياة.

وتسمرت عيناي على الجسد الهامد .. لحم الانثى ما زال يحتفظ باغرائه الحار رغم ثلج الموت المتساقط عليه .. ولو لم يدخل الرجل الانيق الى الغرفة في تلك اللحظة لسقطت فوق الجسد وانا الهث .

قال الرجل الانيق :

ـ عمل لا بأس به .. لماذا لم تستعمل السكين ؟ .. اتخاف من رؤية الدم ؟ .. لا شيء اجمل من دم احمر مسفوح على لحم ابيض .

ومد يده الي ، وكانت تحمل رزمة من الاوراق المالية ، وقال :

ـ عندما تكون جيوبك مليئة بالنقود .. تصبح المدينة ملكا لك ..

انت الان سيد المدينة المجهول .. وباستطاعتك ان تفعل بها ما تشاء .. اذهب وتمتع بوقتك ..

وعدت من جديد الى الشوارع ، وكلي توق الى خنق صراخ جوعي .. فاخترت مطعما فخما .. دلفت الى داخله برأس مرفوع .. وابتسمت بهزء عندما اسرع خادم المطعم نحوي وانحنى باحترام .. طلبت صحنا من البفتيك .. التهمته بسرعة وانا جد معجب بطعمه اللذيذ الى حد مدهش .

وقلت لخادم المطعم بينما انا ادفع له ثمن ما اكلت :

ـ اللحم لذيذ جدا .

فاجاب برصانة :

ـ مطعم للاغنياء .. وهو لا يقدم الا افخر الاطعمة .. اللحم الذي اكلته .. لحم انسان بدين .

فتساءلت بصوت خفيض اجوف : لحم انسان ؟

واندفعت الى خارج المطعم ، وفي زاوية من زوايا الشارع حاولت ان اتخلص من الغثيان الذي داهمني بان انقيأ فلم انجح ..

وسرت بخطى مهتاجة وانا اردد : لحم انسان .. لحم انسان .

واصطدمت بصبي صغير لصق حائط ، فسألته بخشونة :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ اليس لك بيت ؟

فاجاب بذعر : اني انتظر امي .. انا اخاف من البقاء وحدي في البيت.

ـ اين امك .

فاشار بيده الصغيرة الى باب احد الدور وقال :

ـ انها هناك .

ـ بيت اقاربك ؟

ـ ليس لي اقارب .

ـ اليس لك اب ؟

ـ ابي ميت .

وتصورت في الحال امه .. انها امرأة فقيرة جميلة وديعة ملقاة الان على سرير رجل غريب يسحق جسدها العاري بينما هي تفكر بطفلها الذي ينتظر وبالنقود التي ستكون ملكا لها بعد قليل .

وحدقت بشفقة في وجه الصبي الصغير الذي اكتست ملامحه بغلاف من الاسى الصامت .. فوجهي ربما كان مثل وجهه .. عندما كنت صغيرا اقف مرتجفا قرب حائط صلب انتظر ذراعي امي الحانيتين اللتين ادركت فيما بعد انهما كانتا تطوقان في كل ليلة عنق رجل ما .. يملك نقودا .

وتابعت مسيري وفي تلك اللحظات كانت المدينة موسما عجوزا ذات وجه شاحب متعب لا يعرف الابتسام ، وكان حنيني لقبري اغنية اسيانة تنمو وتزدهر .. ورفعت وجهي الى اعلى فاذا بالقمر قد اختفى تماما خلف السحب السوداء .. انا عائد الى قبري .. واخذت اركض كمجنون هلع من شارع الى شارع بينما راحت الامطار تهطل بغزارة. .اين قبري..اين قبري .. اني اضعته .. لا فائدة من البحث .. اواه يا اما تمقت ولدها. اني اضعت قبري .. فالى اين اذهب ؟

دمشق

زكريا تامر

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الست الاولى من الآداب تباع كما يلي

		مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ل.ل	١٠٠ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السادسة	٢٥ «	٣٠ «